﴿أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾

(من الآية ٩٤ سورة الأنعام)

« البيْن » هو ما يفصل أو ما يصل . فعندما نجد اثنين قاعدين وبينهما « بين » فهذا البين فاصل وواصل . فإن اعتبرته واصلاً، أقول : تقطع هذا ، أى وقع التقطع بينكما ، و انفصمت الروابط بينكم وتشتت جمعكم ، وإن كان البين فاصلا فقد وصلوا أنفسهم بالأصنام .

وماذا كانت صلة هؤلاء بالأصنام التى يشركونها فى العبادة ؟ كانوا يقدمون لها القرابين ، وغير ذلك . وهذه الأصنام وكل من جعلوه شريكا مع الله سيفر منهم يوم القيامة . وهكذا يتحقق قوله الحق : « لقد تقطع بينكم ».

ويواصل سبحانه : « وضلَّ عنكم ما كنتم تزعمون » ، و« ضلّ » أى تاه وغاب ، ماكنتم تبحثون عنهم فلا تجدونهم مصداقا لقوله الحق :

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾

(من الآية ١٦٦ سورة البقرة)

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾

بعد ما تكلم الحق عن التوحيد والنبوات ، ومن كانوا يعاكسون ويعارضون ويناوئون تلك النبوات ويكذبونها وقالوا فيها الإفك أراد الله أن يلفت خلقه إلى ما أعدّه لهم استبقاء لحياتهم ، وكيف سخّر لهم كل الكون بما فيه.. جماداً ونباتاً وحيواناً ، وكأنه سبحانه يوضح : إن كنت لا ترى أن

الخالق يستحق عبادتك فانظر إلى ما أنعم عليك به من النعم ، ومادام العبد المخلوق له كل نعم الخالق الأعلى فلماذا لا يسمع كلمته سبحانه ؟ أيها المخلوق أنت تتربى على مائدة الرحمن وهو خالقك فانظر وتأمل واعرف .

« إن الله فالق الحب والنوى » وساعة تسمع لفظ الجلالة : أى علم واجب الوجود وهو الله ، فعليك أن تأخذ لفظ الجلالة بكل ما يدل عليه من صفات الجلال وصفات الجمال ما عرفته وما لم تعرفه ؛ لأنه سبحانه خلق الكون كله وهوقيُّوم عليه ، وهذا الخلق وتلك القيّوميةفعل يقتضي صفات متعددة تقتضى قدرة ، وحكمة ، وعلماً واسعاً ورحمة ، وبسطاً وقبضاً وغير ذلك ، وبدلاً من أن يأتى لك بصفات القدرة ، وصفات الجمال و يذكرها ويعددها لك يقول سبحانه عن نفسه : « الله » ؛ لأنه الاسم الجامع لكل صفاته . ونحن نقول في بدء كل عمل : بسم الله ، وفى ذلك إيجاز لما يحتاج إليه أى عمل ، لأن أى عمل يحتاج إلى قدرة ، فتقول : باسم القادر ، ويحتاج إلى علم فتقول : « باسم العليم » ويحتاج إلى حكمة فتقول : « باسم الحكيم » ويحتاج عزة فتقول : « باسم العزيز » وقد يحتاج الى قهر عدوك لأنك قد تدخل معه في حرب فتقول : « باسم القاهر » إذن كل عمل يحتاج إلى حشد من صفات الكمال والجلال يخدم الفعل ، فبدلاً من أن نقول باسم القادر وباسم الحليم وباسم العليم وباسم القابض، يوفر عليك سبحانه كل ذلك فتقول : بسم الله ؛ لأن اسم الجلالة وهو «الله» هو الجامع لكل صفات الكمال .

« إن الله فالق الحب والنوى » ، فالق أى شاقق ، جاعل الحب والنوى كل منهما فلقتين . « والحب » ما لا نواة له مثل الشعير والقمح والأرز . وهناك ما له نوى مثل البلح والخوخ ، وتجد فى قلب النواة شيئاً آخر . وهناك نوع آخر له بذور مثل البطيخ ، وفى كل بذرة تجد فيها شيئاً ، فيوضح لك الحق سبحانه وتعالى : إن عظمتى تتجلّى فى أننى أخلق الحب وأخلق النوى ، وهناك حبوب مفلوقة جاهزة ، مثل حبة الفول مثلاً وحبة العدس .

وأنت إذا ما نظرت إلى هذه العملية وجدت شيئا عجباً !!

فحين تأتى لنواة البلح أو حبة الشعير ، وتضعها فى الأرض فى بيئة استخراجها ، وبقليل من الرطوبة ، تجد الفلقتين قد خرج منها نبتة وتكاد النواة أن تنفلق ليخرج منها الزبان الضعيف بين الفلقتين ويتكون ما يسمى بالجذير . وهكذا تجد سر الحياة يأتى من الفلقتين ، وإن نزعت هذا الجذير تنتهى الحياة . ولذلك وجدنا من يتعجب حين اقتحم أعشاش النمل ووجد فى العش قطعاً صغيرة مفتتة بيضاء بجانب العش ، واكتشفوا أن هذه هى زبانات الحب الذى يدخله النمل للعش ، فلو أن النمل أدخل الحبوب كاملة فقد تأتى لفحة من رطوبة فتكبر هذه الحبة ، وتنمو وتصير شجرة تفتك بالعش ، فمن الذى هدى النمل إلى أن تفعل هكذا ؟ إنه الله. ونجد النمل يفلق حبة نبات « الكزبرة » إلى أربع قطع لأنه لو قطعها إلى اثنتين قد تنبت ، من الذى علمه ؟ إنه سبحانه :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾

(سورة الأعلى)

والعجيب أنك حين ترى النبتة الضعيفة ساعة أن تخرج إلى الحياة وهي التى ستكون من بعد ذلك جذراً إنها هشة وضعيفة إن أمسكتها بيدك تسحقها ، لكنها تخترق قلب الأرض الصلبة التي لو ضربتها بسكين لانكسرت السكين ، لكن الجذير الضعيف يدخل فى قلب الصخر والأرض ، فأى قوة أعطته ذلك ؟ أي قوة تخرق له الأرض ؟ وهل الجذير هو الذى خرق الأرض أو خُرِقَت له ؟ لقد خرق الحق الأرض للبذرة لتستخرج منها غذاء للزرع ، إنّها قدرة الحق سبحانه « فالق الحب » الذى ادخر فى فلقتين اثنتين قوتاً للنبات إذا مسته رطوبة تتغذى عليها الزريعة إلى أن تربى الجذور ، ويستمد النبات غذاءه من الفلقتين إلى أن يثبت ويتمكن فى الأرض ثم تتحور الفلقتان إلى ورقتين خضراوين .

ويتابع الحق سبحانه : « يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحي ». وحين تأمل العلماء هذا القول وأرادوا أن يوضحوا لنا ما الحى ؟ وما الميت؟

فات الجميع أن يعرفوا ما هى الحياة؟ الحياة هى قيام الموجود بما يؤدى به مهمته ، فحياة الإنسان فيها حركة وحس وجرى ، ثم هناك حياة ثانية فى الحيوان ، وحياة ثالثة فى النبات، وحياة ذات طابع مختلف فى الجماد . مثلما علمونا فى المدارس حين كان المدرس يمسك بقضيب ممغنط ليجذب برادة الحديد ، حتى الحديد الصلب فيه لون معين من الحياة . وكلنا رأينا فى المدارس الأنبوبة الزجاجية التى وضعوا فيها برادة الحديد وكيف تتأثر بقضيب المغناطيس . وتعتدل وتصير فى مستوى واحد ، وهكذا نعرف أن الحياة هى الطاقة الموجودة فى كل كائن ليؤدى مهمته حتى الأحجار تختلف فيها أشكال الحياة، فهناك حجر يأخذ شكل الرخام ، وآخر يأخذ شكل المرمر، وكل لون من الأحجار له شكل من أشكال الحياة .

ونقرأ فى القرآن :

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

وجاء الحق بمقابل الهلاك وهو الحياة ؛ فالهلاك ضد الحياة والحياة ضد الهلاك ، ويقول سبحانه فى آية أخرى :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

إذن ما دام كل شىء هالكاً ، فكل شىء فيه حياة ، والخطأ أن تظن أن كل حياة تتشابه فى الحس والحركة مع الإنسان ، لا ، إن الحياة فى كل شىء بحسبه ، إلى أن تقوم القيامة ، فكل شىء حى له حياة تناسبه ، وحين نسمع :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الإسراء)

نقول : نعم كل من يسبح بحمده يقول قولاً ، وإياك أن تقول إنّه تسبيح دلالة ؛ لأن بعضهم يقول: إن هذا تسبيح دلالة على الخالق ، ونقول : لو أن الذى يقصده الله تسبيح دلالة على خالق لما قال : ﴿ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ .

إذن : فلا أحد منا يفهم لغة التسبيح ، وعرفنا من قبل حين سمع سليمان عليه السلام قول النملة وتبسم لها ضاحكاً ، وكذلك ما سمعه من الهدهد ، وكذلك تسخير الجبال لتسبح مع داود عليه السلام .

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إن كل كلمة لها دلالتها ومعناها . فكلمة العلم تدلنا على إحاطة علمه بكل شيء فى الوجود ، وكلمة الحكمة تدلنا على أن كل شيء منه يصدر عن حكمة . وكلمة الرزاق تدلنا على أن كل مرزوق فى الوجود إنما أخذ من فيضه وخيره ، وهكذا إلى ما لا نهاية لكماله من صفات ذاته . وكلمة « الله » تدل على كل صفات الجلال والجمال والكمال ، فإذا قال : « الله » فهذا الاسم : يشمل القادر ، العالم ، الحكيم ، القدير ، وكل صفات الحق ما علمت منها وما لم تعلم ، ما دامت ذاته سبحانه وتعالى متصفة بكل صفات الكمال ، فالواجب أن يكون كل فعل يصدر عن ذاته المتصفة بالكمال له مطلق القدرة والجمال والكمال .

إذن فحين يقول الحق ذلك فإنما يلفتنا إلى أن كل شيء كائن فى الوجود إنما هو من خلق الله ، وأن له حياة تناسب مهمته ؛ فالإنسان له حياة تناسب مهمته . والحيوان له حياة تناسب مهمته . والنبات له حياة تناسب مهمته . والجماد له حياة تناسب مهمته . وإذا نظرت إلى الأشياء كلها بهذا المعنى وجدت أن كل موجود فيه حياة ، ولكن الحياة الكاملة بكل مقوماتها وجدت فى الأعلى من المخلوقات وهو الإنسان ، والله سبحانه وتعالى خلق فى الإنسان الحياة حساً وحركة ، ثم أعطاه حياة أخرى هى التى تُصعّد

حيـاته وتجعل لحياته قـيمة ؛ لأن حيـاتنا التى نعيشـها إنما يتمتع بهـا المؤمن والكافر، وقصارى ما فيها أن تعطينا الحس والحركـة قدر عمرنا فى الحياة ، ولكن حياة الإيمان بما يبعثه الله لنا من منهج على يد الرسـول ﷺ تعطينا حياة أوسع ، وأخلد ، وأرغد ، وهذه هى الحياة الحقة ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة العنكبوت)

وهذه هى الحياة الحقيقـية وقول الحق : « إن الله فالق الحب والنوى » هو المقدمة الأولى للحياة ، ثم تكلم عن الحـياة وأنه يخرج حياً من مـيت ، وهو هنا قد خاطبنا على مقدار أوليات علمنا بالأشـياء ؛ فالشىء إذا لم يكن له حس وحركة نعتبـره ميتاً لكن لو نظرت إلى الحقيقة لوجدت كل شىء فى الوجود له حياة . مصداق ذلك قوله جلت قدرته : « كل شىء هالك إلا وجهه » .

وما دام كل شىء هالكاً فكل شىء قبل أن يهلك كان فيه حياة .

والله سبحانه القائل :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧) ﴾

(آل عمران)

ولمـاذا جـاء فى هـذه الآية بـ « تخـرج » وجـاء فى الآية التى نحـن بصـدد خـواطرنا عنها قـوله : « ومـخرج الميت مـن الحـى » ؟ إنّ الـذين بحـثـوا هـذا البـحث نظروا نـظرة سطحـيـة فى المقـابلة الجـزئـيـة فى الآية ، وهى : « يخـرج

الحى من الميت » وقال : «ومخرج الميت من الحى » ونسوا أنه سبحانه قال: إنه يخرج الحى من الميت ؛ لبيان أن الله فـالق الحب والنوى ليخـرج الحى من الميت أى أن الله فلق وشق الحب والنوى لأجل أن يخرج الحى من الميت . .

ثم قال : «ومُخرج الميت من الحىّ » هو مقابل لفالـق فلا تأخذها مقابلة للجزئية فى الآية ؛ ولأن الاسم يدل على الـثبـوت ، والفـعل يدل على الحـدوث ؛ فـالحق سبحـانه وتعالى له صفة فـى ذاته ، وصفة فى متعـلقات هذه الذات ؛ فهو سـبحانه وتعالى رزّاق ، قبل أن يكون له مخلوق يرزقه . هو رزاق ، وبعد ما خلق من يرزقه هو رازق ؛ لأنه هو الخـالق ، والخـالق صفـة للذات وإن لم يوجـد المتـعلق ، وهو سبحانه المحـيى قبل أن يوجد من يحييه ؛ لأن صفـته فى ذاته أنه يحيى ، ومميت قبل أن يميت من يريد أن يميته ؛ لأن الصفة موجودة فى ذاته .

وسـبحـانه فـالق الحب والنوى أى قـبل أن يوجـد الحب والنوى الذى يفلقـه ، ومخـرج الحى من الميت هو صفـة ثابتة فى ذاته قبل أن يوجـد متـعلّقها . وله صـفة - أيضاً - بعد أن يوجد المتعلق ، فإن أراد الصـفة قبل أن يوجد المتعلّق جاء بالاسم : « فالـق ومخرج » . وإن كـان يريد الصفـة بعد أن تـوجد ، يقول : « يـخرج » ، « يخرج » .

ويذيل الحق الآية :

﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾

(من الآية ٩٥ سورة الأنعام)

و «ذا » اسم إشارة لما تقدم ، وهو سبـحانه فالق الحب والنوى ومن يخرج الحى من الميت ومـخـرج الميت من الحـى وهو الله . والكاف فى قـولـه : « ذلكم » لمن يخاطبهم وهم نحن ، أما اللام من « ذلكم » فهى للبـعد والميم للجمع . فحين يريد الحق أن يخاطب رسوله ، يقول :

﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾

(من الآية ٢ سورة البقرة)

ولكنه هنا يخاطبنا فيقول : « ذلكم » إشارة إلى قول الحق سبحانه وتعالى : الله ، وفالق ، ومخرج ، والخطاب لجمهرة المخاطبين بالقرآن . فإذا كان الله بهذه الصفات فكيف ينصرفون عن الإيمان به وتوحيده ؟ وذكر لنا أول مقوم من مقومات الحياة وهو النبات وهو ما نأكله ، فإذا كان الحق سبحانه وتعالى هو الذي خلق الحب وخلق النوى ليخرج الحي من الميت وهو مخرج الميت من الحي فهو أولى بأن يكون إلهاً معبودا فكيف تصرفون عنه ؟! وإلى من تصرفون ؟! إلى من توجد فيه صفات أرقى من هذه الصفات ؟!! لا يوجد من فيه صفات مثل هذه ، ولا أرقى من هذه الصفات .

وإذا سمعت كلمة : « أنَّى » فافهم منها أنها تأتى للتعجيب ، تأتى وتطلب أن يدلنا واحد على كيفية انصرافهم عن الله وتوحيده مع وضوح الدلالات والبراهين .

ومرة يقول الحق سبحانه :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة البقرة)

هو سبحانه يخاطب الناس ويقول لهم : كيف تكفرون بالله ؟ فالله فى ذاته يستحق ألا يكفر به ؛ لأنه هو الذى خلق من عدم ، وأمدّ من عُدْم ، ولم يشاركه أحد أو ينازعه فى هذا الأمر ، وإليه نرجع جميعاً ، فكيف تكفرون به ؟ وهذا تعجيب كبير ؛ لذلك يقول سبحانه هنا : « فأنّى تؤفكون » أى فكيف تصرفون عن الحق وتعدلون عنه إلى الباطل فتعبدون - مع الله - إلها آخر بعد أن تعلموا أن هذه الصفات له - سبحانه - وليست لغيره ؟ وكل تعجيب يأتى فى « أنّى » مثل قوله الحق :

﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾

(من الآية ٢٥٩ سورة البقرة)

أي كيف يحيي هذه الله بعد موتها ؟

ويقول سيدنا زكريا لسيدتنا مريم : (أنّى لك هذا)

إذن فالتعجيب ملازم لكلمة « أنّى » فكأن الصفات التي تقدمت صفات موجبة للإيمان بالله واحداً قهاراً مريداً عالماً حكيماً نرجع إليه جميعاً ، فقولوا لنا : كيف تكفرون بهذا الإله ؟ وإلى من تذهبون إذا كان هذا الإله يُكفر به ؟ أهناك شيء ادّعى أنه خلق وأنه رزق ؟ . لو أن شيئاً ادّعى أنه خلق أو رزق كنا نعذركم ، لكن لم يدّع شيء في الوجود بأنه خلق أو رزق ، والدعوة تثبت لصاحبها ما لم يقم لها معارض .

« فأنّى تؤفكون » وكلمة « أنّى تؤفكون » تعني كيف تُصرفون انصرافاً كذباً ؛ لأن « الإفك » . معناه الكذب المتعمّد .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

وسبحانه يأتي بآية أخرى من الآيات المعجزة كما جاء بالآية الأولى في أنه هو الذي خلق لنا ما يقيم حياتنا .

« فالق الإصباح وجعل الليل سكناً » . ومعنى « فالق » أي جعل الشيء شقين ، وهما نعمتان متقابلتان لا تكفي واحدة عن الأخرى ، إذ

لابد أن يوجد إصباح ويوجد الليل سكناً ؛ لأن الإصباح هو زمان وضوح الأشياء أمام رؤية العين ؛ لأننا نعلم أن الظلمة تجعل الإنسان يضطرب مع الأشياء ، فإن كنت أقوى من هذه الأشياء حطمتها ، وإن كانت أقوى منك حطمتك. إن السير في الظلمات التي لا يوجد فيها نور يهدى الإنسان إلى مرائيه قد يؤدى إلى خسارة الأشياء .

إننا في الصباح نعمل ونسعى في الأرض ، ونملأ الدنيا حركة . فإذا ما أصابنا الكد والتعب والنصب من الحركة فالمنطق الطبيعى للكائن الحى أن يستريح ويهدأ ويسكن لا بحركته فقط ولكن بسكون كل شيء حوله ؛ لأنك إن كنت ساكناً ويأتى لك ضوء فهو يؤثر في تكوينك ، ولذلك يقولون الآن : إن « الأشعة » التى يكتشفون بها أسرار ما في داخل جسد الإنسان تترك آثاراً .

إذن فالإشعاع الصادر من الشمس يمنعه عنك الله ليلاً حتى يستريح الجسم من كل شيء ، من كل حركة ناشئة فيه ، ومن حركة وافدة عليه ، وهكذا تكون نعمة سكون الليل وظلمته مثل نعمة الصباح ، وكلاهما تتمم الأخرى ، ولذلك قلنا : إن الحق سبحانه وتعالى في أول السورة قدّم الظلمات على النور :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾

(من الآية ١ سورة الأنعام)

لأنك أنت لا تستطيع أن تنتفع بحركتك في النور إلا إذا كنت نشيطاً ومرتاحاً أثناء الليل . فإن لم ترتح كنت مرهقاً ولن تستطيع العمل بدقة في حركة النهار . إذن فالظلمة مقصودة في الوجود . ولذلك فالحضارة الراقية هى التى تنظم حياة الإنسان ليعمل نهارا ويستريح ليلاً ، حتى لا يستأنف عمله في الصباح مكدوداً . ومن يزور ريف مصر هذه الأيام يفاجأ بأن أهل الريف قد سهروا طوال الليل مع أجهزة الترفيه ، ويقومون إلى العمل في الصباح وهم مكدودون مرهقون .

ونقول : لنأخذ الحضارة من قمتها ، ولا نأخذ الحضارة من أسفلها ؛

فحين تذهب إلى أوروبا تجد الناس تخلد وتسكن ليلاً ، ومن يسير فى الشارع لا يسمع صوتاً ولا يجد من يخرج من بيته ، ولا تسمع صوت ميكروفون فى الشارع ؛ حتى ينال كل إنسان قسطه من الهدوء ، ويختلف الأمر فى بلادنا : فالشوارع تمتلىء بالضجيج ، والمريض لا يستطيع أن يرتاح ، ومن يذاكر لا يجد الهدوء اللازم ، ومن يتعبد تخرجه الضوضاء من جوّ العبادة ، ونجد من يصف ذلك بأنه نقلة حضارية !!

ونقول : لتأخذ كل نعمة من نعم الله على قدر معطياتها فى الوجود النافع لك ، وحين يأتى الليل عليك أن تطفىء المصباح حتى تهجع ولاتتشاغب فيك جزئياتك وتكوينك .

وسبحانه يقول : « فالق الإصباح » . و« فالق » ـ كما قلنا ـ تعنى شاقق ، فهل الإصباح ينفلق ؟ . وبماذا ؟. ونقول : إن « فالق » هى اسم فاعل ، مثلما نقول : « قاتل الضربة » أى أن الضربة من يده قاتلة .

و« فالق الإصباح » معناها أن الصباح ينفلق عن الظلمة ؛ لأن الظلمة متراكمة وحين يأتى الإصباح فكأنه فلق الظلمة وشقها ليخرج النور ، وتعنى « فالق الإصباح » أيضاً أن الفلق واقع على الإصباح فيأتى من بعده الظلام ، وهذه من دقة الأداء البيانى فى القرآن ؛ لأن الذى يتكلم إله .

وامرؤ القيس قال :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى

بصبح وما الإصباح منك بأمثل

والصبح والإصباح معناهما واحد .

هل الصبح من طلوع الشمس ؟ أو الصبح من ظهور الضوء قبل أن تشرق الشمس ؟ يأتى الإصباح أولاً وهو النور الهادىء ، ونجد أطباء العيون بعد إجراء جراحة ما لإنسان فى عينيه يقومون بفك الأربطة التى

تساعد الجرح على الالتئام ، يفكونها بـالتدريج حتى لا يخطف الضوء البصر فوراً ، ومن رحمة الله أن خلق فترة الصبح بضوئها الهادئ قبل أن تطلع الشمس بضوئها كله دفعـة واحدة . فكأن الصبح جاء ليـفلق ظلمة الليل فلقاً هادئاً ، ثم جـاءت الشمس ففلقت الصبح .

إذن الإصباح فالق مرة لأنه شقّ الظلمة وفلقها ومفلوق مرة أخرى ؛ لأن الظلمة جاءت بعده . إذن فاسم الفاعل قد أدى مهمتين . . المهمة الأولى : فالق الإصباح . أى دخل بضوء الشمس . وإن قلنا : إصباحه فالق ، أى ظلمة الليل الأولى انفلقت. إذنْ فالإصـباح فـالق مرة ، ومـفلوق مرة أخـرى . وسبـحانه حـين يقول : «فـالق الإصبـاح وجعـل الليل سكناً » يريد أن يعطى شـقين اثنين ؛ لأنه هو فى ذاته فـالق الإصباح . فيأتى بالاسم ليعطى لها صـفة الثبوت ، ثم جاء بـ « وجعل الليل سكناً » صفة الحـدوث بعد وجود المتعلّق . فـإذا أراد الصفة اللازمة له قبل أن يـوجد المتعلق يأتى بالاسم . وإن أراد الصفة بعد أن وجد المتعلّق يأتى بالفعل .

ولذلك نجد القرآن الكريم يصور الثبات فى قوله الحق :

﴿ وَكَلْبُهُم بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ﴾

(من الآية ١٨ سورة الكهف)

الكلب هنا على هذه الصـورة الثابتة ، وحـين يريد القرآن أن يأتى بالصـفة التى تتغير ، يأتى بالفعل :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الحج)

وكان القيـاس أن يقول : فأصبحت الأرض مخـضرة ؛ لأنه قال: « أنزل » لكنه يأتى بالتجدد الذى يحدث « فتصبح الأرض مخضرة » .

ويتابع الحـق : « والشمس والقمـر حسباناً » ونحـن نعرف الشمس والقـمر وجـاء بعـد ذلـك بكـلمة « حـسـباناً » ، عـلى وزن فُـعْـلان ، وهذا ما

يدل عادة على المبالغة مثلما تقول : فلان والعياذ بالله كفر كفراناً . ومثلما تدعو : غفر الله لك غفراناً . فحين تحب أن تبالغ تأتى بصيغة فُعْلان . وجاء القرآن بكلمة « حسبان » فى موضعين اثنين فيما يتصل بالشمس والقمر جاء بها هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها « والشمس والقمر حسباناً » ، وفى سورة الرحمن يقول الحق سبحانه :

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ ﴾ (سورة الرحمن)

وما الفرق بين التعبيرين ؟ « حسبان » هنا تعنى أن تحسب الأشياء ، فنحن نحسب السنة بدورة الشمس بـ ٣٦٥يوماً وربع اليوم وهى تمر بالبروج فيها خلال هذه المدة ، والقمر يبدأ بروجه كل شهر فى ثمانية وعشرين يوماً وبعض اليوم ، ونحن نحسب بالشمس اليوم ، ونحسب بها العام ، ولكنا نحسب الشهر بالقمر ، وأنت لا تقدر أن تحسب الشهر بالشمس ، بل تحسب الشهر بالقمر لأنه يظهر صغيراً ثم يكبر ويكبر ويكبر . ولذلك يثبت رمضان عندنا بالقمر لا بالشمس . واليوم نثبته بالشمس .

وهكذا عرفنا أن الشمس والقمر يقومان ويعملان في حسابنا للأيام والشهور ، والاثنان حسبان : الشمس لها حساب ، والقمر له حساب وإذا ما نظرت إلى كلمة «حسبان » تفهم أن الشمس والقمر ، كليهما مخلوق ليحسب به شيء آخر ، لأنهما خلقتا بحسبان ، أى أنهما قد أريد بهما الحساب الدقيق ، لأن الشمس مخلوقة بحساب ، وكذلك القمر .

وتعال إلى الساعة التى نستعملها ، ألا يوجد بها عقرب للساعات ، وآخر للدقائق ، وثالث للثوانى ؟ . وهذا أقل ما قدرنا عليه ، وإن كان من الممكن أننا نقسم الثانية إلى أجزاء مثلما عملنا فى المساحات ؛ فهناك المتر ، والسنتيمتر ، والملليمتر ، ثم بعد ذلك قلنا الميكروملليمتر . إذن ، كلما نرتقى في التقدم العلمى نحسب الحساب الأدق . ولم تكن الشمس والقمر حساباً لنا نحسب بهما الأشياء إلا إذا كانت مخلوقة بحساب.

إنك حين تنظر إلى ساعتك تدرك قفزة عقرب الثوانى ولكنك لا تدرك

حركة عقرب الدقائق ، وكذلك لا تدرك حركة عقرب الساعات ، وكل من العقارب الثلاثة يدور «بزمبلك» وترس معين . إن اختلت الحركة فى زمبلك أو ترس ، ينعكس هذا الخلل على بقية العقارب ، والثانية محسوبة على الدقيقة ، والدقيقة محسوبة على الساعة .

وهكذا فإن لم تكن الساعة مصنوعة بهذا الحساب الدقيق فهى لن تعمل جيداً . وهكذا لا نعتبر الساعة معيارا لحساب أزماننا إلا لأنها فى ذاتها خلقت بحساب . والحق سبحانه يقول : « الشمس والقمر بحسبان » أى لنحسب بهما لأنهما مخلوقتان بحسبان . أى بحساب دقيق ، ولماذا لم يقل الحق حساباً وجاء بحسبان هنا ، وحسبان فى آية سورة الرحمن ؟. ذلك لأن الأمر يقتضى مبالغة فى الدقة . فهذا ليس مجرد حساب ، لكنه حسبان .

ويذيل الحق الآية بقوله : «ذلك تقدير العزيز العليم» ، وكلمة «العزيز» تفيد الغلبة والقهر فلا يستطيع أحد أن يعلو عليه ؛ فهذه الأجرام التى تراها أقوى منك ولا تتداولها يدك ، إنما تؤدى لك مهمة بدون أن تقرب منها ؛ فأنت لا تقترب من الشمس لتضبطها ، مثلما تفعل فى الساعة التى اخترعها إنسان مثلك ، والشمس لها قوة قد أمدها الله خالقها بها ولاشىء فى صنعته ولا فى خلقه يتأبى عليه . فهذا هو تقدير العزيز العليم ، وهو سبحانه يعطينا حيثيات الثقة فى كونها حسبانا لنحسب عليها . فهو جل وعلا خالقها بتقدير عزيز لايغلب ، وهو عزيز يعلم علما مطلقا لانهاية له ولا حدود . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾

وبعد أن أوضح سبحانه أنه قد خلق الشمس والقمر بحسبان لتكون حساباً بتقدير منه ، وهو العزيز العليم ، إنه ـ سبحانه ـ يصف لنا مهمة النجوم فقال : « لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر » ، والنجوم هى

الأجرام اللامعة التى نراها فى السماء لنهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ؛ ومن رحمته بنا وعلمه أن بعض خلقه ستضطرهم حركة الحياة إلى الضرب فى الأرض ؛ والسير ليلا فى الأرض أو البحر مثل من يحرسون ويشيعون الأمن فى الدنيا ولا يمكن أن يناموا بالليل . بل لا بد أن يسهروا لحراستنا ، كل ذلك أراده الله بتقدير عزيز حكيم عليم ، ولذلك ترك لنا النجوم ليهتدى بها هؤلاء الذين يسهرون أو يضربون فى الأرض أو يمشون فى البحر بسفنهم ، وهم يحتاجون إلى ضوء قليل ليهديهم ، ولذلك كان العرب يهتدون بالنجوم ؛ يقول الواحد منهم للآخر : اجعل النجم الفلانى أمام عينيك ، وسر فوق الحى الفلانى . واجعل النجم الفلانى عن يسارك وامش تجد كذا ، أو اجعل النجم الفلانى خلفك وامش تجد كذا .

إذن لو طمّت الظلمة لمَنعت الحركة بالليل ، وهى حركة قد يضطر إليها الكائن الحى ، فجعل الحق النجوم هداية لمن تجبرهم الحياة على الحركة فى الليل .

وعلى ذلك فالنجوم ليست فقط للاهتداء بها فى ظلمات البر والبحر ؛ لأنه لو كان القصد منها أن نهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، لكانت كلها متساوية فى الأحجام ، لكنا نرى نجماً كبيراً ، وآخر صغيراً ، وقد يكون النجم الصغير أكبر فى الواقع من النجم الكبير لكنه يبعد عنا بمسافة أكبر ، وعلى ذلك لا تقتصر الحكمة من النجوم على الهداية بها فى حركة الإنسان براً وبحراً ، فليست هذه هى كل الحكمة ، هذه هى الحكمة التى يدركها العقل الفطرى أولا ؛ لذلك يأتى الحق فى أمر النجوم بقول كريم آخر ليوضح لنا ألا تحصر الحكمة فى الهداية بها ليلا براً وبحراً فيقول : « وعلامات وبالنجم هم يهتدون » فلم يقل - سبحانه - يهتدون فى ظلمات البر والبحر . إذن - النجوم - لها مهمة أخرى ، إنه جلت قدرته يقول :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ (سورة الواقعة)

وكل يوم يتقدم العلم يبين لنا الحق أشياء كثيرة ، فها هو ذا المذنب الذى يقولون عنه الكثير ، وها هى ذى نجوم جديدة تكتشف تأكيداً لقول الحق :

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

أى أنه سبحانه قد خلق عالماً كبيراً . وأنت أيها الإنسان قد أخذت منه على قدر إدراكاتك وامتداداتك فى النظر الطبيعى الذى لا تستخدم فيه آلة إبصار ، وأخذت منه بالنظر المعان الذى تستخدم فيه التليسكوب والميكروسكوب ، وغير ذلك من اقمار صناعية . ولذلك يقول الحق سبحانه : « فلا أقسم بمواقع النجوم وأنه لقسم لوتعلمون عظيم » وبعض العلماء يقول : إن كل إنسان يوجد فى الوجود له نجم ، وترتبط حياته بهذا النجم ، وحين يأفل النجم يأفل قرينه على الأرض ، وهناك نجوم لامعة ندرك خفقانها ، ونجوم أخرى غير لامعة وبعيدة عنا ، ويقال إنها تخص أناساً لايدرى بهم أحد لقلة تأثيرهم بأعمالهم فى الحياة . ويتقدم العلم كل يوم ويربط لنا أشياء بأشياء وكأن الحق يوضح : إننى خلقت لكم الأشياء بما قدرتم بعقولكم أن تصلوا إلى شىء من الحكمة فيها ، ولكن لا تقولوا هذه منتهى الحكمة ، بل وراءها حِكَم أعلى ، فسبحانه هو الحكيم القادر ، إنك قد تدرك جانبا يسيرا من حكم الله ، ولكن عليك أن تعلم أن كمال الله غير متناهٍ ، ولايزال فى ملك الله ما لا نستطيع إدراك حكمته إلى أن ينهى الله الأرض ومن عليها .

ويقول الحق سبحانه فى تذييل الآية : «قد فصّلنا الآيات لقوم يعلمون » والآية هى الشىء العجيب ، وتطلق على آيات كونية :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة فصلت)

وتطلق كلمة «آية» على الطائفة من القرآن التى لها فاصلة . إذن هناك آيات قرآنية ، وآيات كونية ، والآيات الكونية تعتبر مفسرة للآيات القرآنية؛ فتفصيل الآيات فى الكون مانراه من تعددها أشكالاً وألواناً وحكماً وغايات. وتفصيل الآيات فى القرآن هو ماينبهنا إليه الحق فى قرآنه وليلفت النظر إلى أن ذلك التفصيل فى آيات الكون وذلك الخلق العجيب الحكيم

الذى لا يمكن أن يكون إلا لإله قادر حكيم يستحق أن يكون إلهـاً موحَّداً ، ويستحق أن يكون إلهاً معبوداً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

وقد تكلم سبـحانه لنا ـ أولاً ـ عن الآيات المحيطة بنا والتى بها قـوام حياتنا من فلق الحب والنوى ، وبعد ذلك تـكلم عن الشمس والقمـر ، ثم تكلم عن النجوم ، كل هذه آيات حـولنا ، ثم يتـكلم عن شىء فى ذواتنـا ليكون الدليل أقـوى ، إنه ـ سبحانه ـ يأتى لك بالدليل فى ذاتك وفـى نفسك ؛ لأن هذا الدليل لا يحتاج منك إلى أن تمد عينيك إلى ما حولك ، بل الدليل فى ذاتك ونفسك ، يقول سبحانه :

﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

أى يكفى أن تجعل من نفـسك عَالَمًا ، هذا العالم موجـود فيه كل ما يثبت قدرة الحق ، وأحقيته بأن يكون إلهاً واحداً ، وإلهاً معبوداً .

«وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة » ينطبق على هذا القول أنه إخبار من الله ، وأنه ـ أيضاً ـ استـقراء فى الوجود ، الذى نسميـه التنازل للماضى ؛ لأنك لو نظرت إلى عدد العالم فى هذا القرن ، ثم نظرت إلى عدد العالم فى القرن الذى مضى تجده نصف هذا العـدد ، وإذا نظرت إليه فى القـرن الذى قبله ، تجده ربع تعـداد السكان الحاليين . وكلمـا توغلت فى الزمن الماضى وتذهب فيه وتبعـد ، يقل العدد ويتناهى إلى أن نصل إلى «نفس واحدة» ، وهذا مـا ذكره الله لنا ، ولقائل أن يقـول : كيف تكون نفساً واحدة وهو القائل :